

الجاهلية

عناصر الموضوع

٣١٨	مفهوم الجاهلية
٣١٩	الجاهلية في الاستعمال القرآني
٣٢٠	الألفاظ ذات الصلة
٣٢١	الجهل والطبيعة الإنسانية
٣٢٢	تنزيه الرسل عن أخلاق الجاهلين
٣٢٤	أنواع الجاهلية
٣٢٨	من صور الجهالة
٣٣٠	علاج الجهالة
٣٣٣	التعامل مع الجاهلين

مفهوم الجاهلية

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (جهل) تدل على معنيين: أحدهما: خلاف العلم، والآخر: الخفة وخلاف الطمأنينة^(١).

والجاهلية في اللغة: «يعبر بها عن التناهي في الجهل»^(٢)، «وأصل الجهل من قولهم: استجهلت الريح الغصن، إذا حرّكته، فكأن الجهل إنما هو حركةٌ تخرج عن الحق والعلم»^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

الجاهلية في الاصطلاح: «هي عادة القوم قبل الإسلام»^(٤)؛ «لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع»^(٥)، وقد أطلق عليها القرآن أحياناً لفظ: (الجاهلية الأولى)، «ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى - جاهلية الكفر قبل الإسلام. والجاهلية الأخرى - جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام»^(٦).

فيكون بهذا لفظ الجاهلية ليس معناه شيئاً واحداً! وإنما هو مجموعة العادات والتقاليد التي كان يتسم بها الناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، مما جاء الإسلام بإبطالها. «وأحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل، وترغيباً في العلم؛ ولذلك يذكره القرآن في مقامات الذم في نحو قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]»^(٧).

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

الجهل في اللغة ضد العلم، وفي الاصطلاح وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل، وترغيباً في العلم.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١ / ٤٩٠.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٢ / ٥٩٧.

(٣) نظم الدرر، البقاعي ٥ / ٢٢٠.

(٤) كشف المشكل، ابن الجوزي ٢ / ٣٧٥.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢ / ١٣.

(٦) الكشف، الزمخشري ٣ / ٥٣٧.

(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤ / ١٣٦.

الجاهلية في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ج هـ ل) في القرآن (٢٤) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]	٥	الفعل المضارع
﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]	٤	مصدر صناعي
﴿يُحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]	١٠	اسم الفاعل
﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]	٤	مصدر سماعي
﴿وَحَلَمَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]	١	صيغة مبالغة

وجاءت الجاهلية في القرآن بمعناها في اللغة وهي من الجهل، والجهل في اللغة على ثلاثة أضرب^(٢):

الأول: وهو خلو النفس من العلم، هذا هو الأصل.

الثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا،

كمن يترك الصلاة متمددًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَذَّبْنَا هُرُوقًا قَالَ أَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ آكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٨٤.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٠٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإسلام:

الإسلام لغة:

الاستسلام، والانقياد^(١).

الإسلام اصطلاحًا:

الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله^(٢).

الصلة بين الجاهلية والإسلام:

الجاهلية هي مجموعة العادات والتقاليد التي كان يتسم بها الناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، مما جاء الإسلام بإبطالها، فالإسلام مرحلة مهمة في إبطال مجموعة العادات والتقاليد المخالفة التي انتشرت في الجاهلية.

٢ الشرك:

الشرك لغة:

مأخوذ من شرك، ومنه: (أشرك بالله: كفر، أي: جعل له شريكًا في ملكه تعالى الله عن ذلك)^(٣)، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحًا:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه^(٤).

الصلة بين الجاهلية والشرك:

من أخطر الأمور المتفشية في الجاهلية المتعلقة بالعبادة هو الشرك، والذي كان للشياطين العلاقة الوطيدة فيه، روى الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة رنَّ إبليس رنة اجتمعت إليه جنوده، فقال: ائسوا أن تردوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا، ولكن افتنوهم في دينهم، وأفشوا فيهم النوح)^(٥).

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥ / ١٩٥٢، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣ / ٩٠.

(٢) انظر: ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع، محمد بن عبد الوهاب، ص ١٤.

(٣) تاج العروس، الزبيدي، ٢٧ / ٢٢٤.

(٤) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٢ / ١١، رقم ١٢٣١٨. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة،

الجهل والطبيعة الإنسانية

قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَوْفِيًا﴾ [النساء: ٢٨].

قال طاووس ومقاتل وغيرهما: «لا يصبر عن النساء»، وقال الحسن: «هو خلقه من ماء مهين»، وقال الزجاج: «ضعف عزمه عن قهر الهوى».

قال ابن القيم: «والصواب أن ضعفه يعم هذا كله، وضعفه أعظم من هذا وأكثر؛ فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدود»^(١).

لقد فطر الله الإنسان على صفات النقص كتقدير كوني، لكنه سبحانه أرشده إلى ما يزيل به نقصه ذلك أو بعضه، فمثلاً: طبع الله الإنسان على الخطأ، كما قال صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)^(٢)، فانظر كيف دلَّه على ما يمحو به أخطاءه!

وكذلك طبع الإنسان على الظلم

والجهل، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم دلَّه ربه سبحانه على ما يرفع به عن نفسه ذلك الظلم والجهل، فقال لرفع الظلم: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

وقال سبحانه لرفع الجهل: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وعن أول خروج الإنسان للعالم قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ثم أعطاه الله ما يرفع به عن نفسه ذلك الجهل الفطري فقال: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

بهذا نعلم أن الجهل من طبيعة الإنسان البشري، لكنه مأمور شرعاً برفع ذلك الجهل عن نفسه؛ ليسلم من تبعات الأخطاء التي يرتكبها بسبب جهله، خاصة إن كان في حاضرة علم وعلماء.

١٣٧٣/٧، رقم ٣٤٦٧.

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ١٠٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب رقم ٤٩، ٤/٦٥٩، رقم ٢٤٩٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/١٤٢٠، رقم ٤٢٥١. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/٨٣١، رقم ٤٥١٥.

تنزيه الرسل عن أخلاق الجاهلين

الإيمان بأنبياء الله تعالى ركن من أركان الإيمان بالله تعالى، لا يصح إيمان عبد بدونه.

قال الله تعالى: ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةَ وَالْكِتَابِ وَالرُّسُلَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولا شك أن الأنبياء والرسل هم المبلغون عن الله تعالى دينه ورسالاته؛ لذا فلم يرسل الله تعالى لتلك المهمة إلا الخالص من عباده.

قال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

أي: «يختار ويجتبي من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً يكونون أذكى ذلك النوع، وأجمعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واصطفاهم ليس جاهلاً بحقائق الأشياء! أو يعلم شيئاً دون شيء! وإنما المصطفى لهم السميع

البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء، فاخياره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] (١).

ويعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة ثمانية عشر نبياً ورسولاً.

قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَا فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا يَكْفُرِينَ ﴿٨١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفْتَدُهُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

ولما أمر موسى عليه السلام قومه أن يذبحوا بقرة، كان جوابهم: ﴿قَالُوا اتَّخَذْنَا هُزُوءًا﴾! فكان جوابه عليه السلام أن: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]: «تبرؤ وتتره عن الهزاء؛ لأنه لا يليق بالعقلاء الأفاضل، فإنه أخص من المزح؛ لأن في الهزؤ مزحاً مع استخفاف واحتقار للممزوح معه، على أن المزح لا يليق في المجامع العامة والخطابة، على أنه لا يليق بمقام الرسول؛ ولذا تبرأ منه موسى بأن نفى أن يكون من الجاهلين، كناية عن نفى المزح بنفي ملزومه، وبالغ في التنزه بقوله:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٤٦.

هنا بعض الآيات التي تدل على ذلك:
فهذا نوح وهود وصالح وشعيب عليهم
السلام يقول كل منهم لقومه: ﴿يَقُولُوا أَعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فتوحيد الله في العبادة هو أعظم العلم،
والشرك به سبحانه أعظم الجهل.

وهذا هود عليه السلام يقول لقومه:
﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى
قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا آيَاتِنَا تَجْرِمِمْتَ﴾ [هود: ٥٢].

وكما سيأتي معنا أن كل من عصى الله
فهو جاهل، وكل من أطاعه فهو عالم، وهذا
الاستغفار الذي أمرهم به هو من أعظم العلم
الذي يهدم جهل المعصية، وكلما كان العبد
صادقاً في توبته واستغفاره كان أكثر علماً
بالله تعالى وبِعظيم قدره.

بهذا نعلم مدى بعد أنبياء الله ورسله
عليهم الصلاة والسلام عن أخلاق الجاهلين
وأعمالهم وصفاتهمهم. ولله الحمد.

﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ أي: منه؛ لأن العياذ بالله أبلغ
كلمات النفي، فإن المرء لا يعوذ بالله إلا إذا
أراد التغلب على أمر عظيم لا يغلبه إلا الله
تعالى^(١).

إذن فهم عليهم الصلاة والسلام متزهون
معصومون عن الوقوع في أعمال الجاهلين.

وما بعث الله أنبياءه عليهم الصلاة
والسلام إلا لينها أقوامهم وأمهم عن
أعمال الجاهلين، فبيننا عليه الصلاة والسلام
قرأ على قومه لوم الذين ﴿يُظَنُّونَ بِاللَّهِ عَيْرَ
الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وبلغ أمته نكير الله على الحاكمين
بالجاهلية إذ قال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ
أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا يَقُولُوا قَوْلَهُمْ﴾ [المائدة:
٥٠].

وتلا عليه الصلاة والسلام على نسائه
ونساء المؤمنين: ﴿وَلَا تَبْجَحْنَ تَبْجُحَ
الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وكانت أقواله وأفعاله صلى الله عليه
وسلم تنهى عن حمية الجاهلية، وبيئت هذه
الآية أنها في قلوب الكافرين لا المؤمنين
بالله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ
الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

بل إن المتأمل في سيرتهم عليهم الصلاة
والسلام، يجد -بلا عناء- أنهم دعاة إلى ضد
الجهل والجاهلية والجهالة، ولتستعرض

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٤٨.

أنواع الجاهلية

تحدث القرآن عن أنواع الجاهلية، وسوف نبين ذلك فيما يأتي:

أولاً: الجاهلية العقديّة:

وهذه أخطر أنواع الجاهلية؛ لأنها تمس دين المسلم وعقيدته -والعياذ بالله-.

ومن أدلة هذه الجاهلية العقديّة:

أولاً: قوله جل في علاه: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَائِبُونَ أَعْبُدُوا إِلَهُ الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

و«إنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقاً للأشياء، ويكونه مالِكاً لمقاليذ السموات والأرض، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة، واشتغل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة؛ فقد بلغ في الجهل مبلغاً لا مزيد عليه؛ فلهذا السبب قال: ﴿إِنَّمَا الْجَاهِلُونَ﴾ ولا شك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضوع»^(١).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَزَوْنَا يَبْنَؤَ إِسْرِهِ بِلِ الْبَحْرِ فَاتَوَّا عَلَى قَوْمٍ يَكْفُرُونَ عَلَى أَصْنَانِهِمْ لَهُمْ قَالُوا يَنْمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهُاً كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعَاتٌ مِمَّا فِيهِ وَيَنْطَلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧ / ٤٧١.

ثانياً: قول الحق سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قال ابن كثير رحمه الله في الكلام عن هذه الآية: «ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان، الذي وضع لهم السياق: وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله؛ حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير»^(٢).

فالحكم من أعظم خصائص ألوهية الرب سبحانه وتعالى، كما قال تعالى:

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ١٣١.

شاهدوا قومًا يعكفون على عبادة أصنامهم جهلوا وارتدوا وقالوا لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة! ولا شك أن القوم لما شاهدوا المعجزات الباهرة التي أظهرها الله تعالى لموسى على فرعون، ثم شاهدوا أنه تعالى أهلك فرعون وجنوده، وخص بني إسرائيل بأنواع السلامة والكرامة، ثم إنهم بعد هذه المواقف والمقامات يذكرون هذا الكلام الفاسد الباطل؛ كانوا في نهاية الجهل وغاية الخلف»!!^(٢).

وقد قال لهم موسى عليه السلام بعد بيانه جهلهم - محذّرًا لهم عاقبة أولئك العاكفين على عبادة غير الله تعالى -: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَنْظِلُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم مبيّنًا لبعض نعم الله عليهم: ﴿قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ بَصِيرَتَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَمْجَمْتَكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُؤُونَكُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ ابْنَاءُ كُفْرٍ وَسَخْمُونَ نِسَاءَ كُفْرٍ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤٠-١٤١] أي: فكيف بعد كل هذه النعم تريدون عبادة غيره؟! ما هذا إلا من أعظم أدلة جهلكم بقدر خالقكم ومنجيكم سبحانه وتعالى!

﴿إِلَٰهُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فلا يجوز لأحد سواه أن يحكم في الناس بغير حكمه سبحانه، ولا يجوز لمسلم أن ينصاع لأحد يريد أن يحكمه بغير حكم الله تعالى، وقد حصر الله الحكم له سبحانه فقال في ثلاث آيات من القرآن: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، [يوسف: ٤٠]، [يوسف: ٦٧].

ثالثًا: قول الله تعالى: ﴿وَجَنُوزًا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

أي: «إنكم أيها القوم قوم تجهلون عظمة الله وواجب حقه عليكم، ولا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له ملك السموات والأرض»^(١).

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بيّن أنواع نعمه على بني إسرائيل، بأن أهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم، أتبع ذلك بالنعمة العظمى: وهي أن جاوز بهم البحر مع السلامة، ولما بيّن تعالى في سائر السور كيف سيرهم في البحر مع السلامة، وذلك بأن فلق البحر عند ضرب موسى البحر بالعصا، وجعله يبسا؛ بيّن أن بني إسرائيل لما

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤ / ٣٤٩.

(١) جامع البيان. للطبري ١٣ / ٨٠.

ثانياً: الجاهلية السلوكية:

وهذه الجاهلية السلوكية دون تلك العقديّة، لكنها قد تصل بصاحبها إلى الكفر بالله تعالى عياداً بالله إذا عملها مستحلاً لها، بل حتى لو لم يعملها لكنه اعتقد حلّها بعد أن حرّمها الله تعالى.

ولهذا النوع من الجاهلية أمثلة في القرآن الكريم، نذكر هنا بعضها لتدل على ما سواها، فمن ذلك:

أولاً: قول نبي الله يوسف عليه السلام حين دعت امرأة العزيز والنسوة من ورائها ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَلَا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

«فإن قلت: نزول السجن مشقة على النفس شديدة، وما دعوته إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة؟ قلت: كانت أحبّ إليه وآثر عنده نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية، وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظراً في مشتتهى النفس ومكروها» (١).

وقوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: «من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنّ من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء.

أو من السفهاء؛ لأنّ الحكيم لا يفعل

القيح» (٢).

والتعبير بـ«قوله»: ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أبلغ من قول: «أكن جاهلاً» (٣).

وفي قوله عليه السلام: ﴿وَالْأَلَا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ...﴾ دلالة «على أن أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله» (٤).

ثانياً: وقال لوط عليه السلام لقومه: ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

أي: «تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك! أو تجهلون العاقبة، أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها» (٥).

إن «مجرد الكشف عن هذه الفاحشة يكفي لإبراز شذوذها وغرابتها لمألوف البشرية، ولمألوف الفطرة جميعاً! ثم دمجهم بالجهل بمعنييه: الجهل بمعنى فقدان العلم، والجهل بمعنى السفه والحمق، وكلا المعنيين متحقق في هذا الانحراف البغيض؛ فالذي لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شيء، ولا يعلم شيئاً أصلاً! والذي يميل هذا الميل عن الفطرة سفاهة أحقق معتد على جميع الحقوق» (٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧ / ٢٦٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩ / ١٨٥.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤ / ٥٦٢.

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٦٤٧.

(١) الكشاف، الزمخشري ٢ / ٤٦٧.

أحدهما: أن المراد من كان في زمن نوح، والجاهلية الأخرى من كان بعده.

وثانيهما: أن هذه ليست أولى تقتضي أخرى؛ بل معناه تبرج الجاهلية القديمة، كقول القائل:

أين الأكاسرة الجبابرة الأولى^(٣).

«كان المعنى: ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تشبهن بها بأهل جاهلية الكفر»^(٤).

ثم «أمرهن أمراً خاصاً بالصلاة والزكاة ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾، ثم جاء به عاماً في جميع الطاعات ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات، من اعتنى بهما حق اعتنائه جرتاه إلى ما وراءهما.

ثم يبين أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن؛ لثلاث يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المآثم، وليتصونوا عنها بالتقوى، واستعار للذنوب: الرجس، وللتقوى: الطهر؛ لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنس، كما يتلوّث بدنه بالأرجاس، وأما المحسنات فالعرض معها نقى مصون كالشوب الطاهر.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ وفي هذه

«ثم إنه تعالى يبين جهلهم بأن حكى عنهم أنهم أجابوا عن هذا الكلام بما لا يصلح أن يكون جواباً له فقال: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]»^(١).

«سبحان الله! ومتى كان الطهر ذنباً وجريمة تستوجب أن يخرج صاحبها من بلدة؟ إنها نعمة نسمعها دائماً من أهل الباطل في كل زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحق، ويسعون لإبعادهم من الساحة لتخلو لباطلهم.

ومن عدل الله تعالى أن يظهر في منطقهم دليل إدانتهم وخبث طباعهم، فكلمة ﴿يَنْطَهُرُونَ﴾ التي نطقوا بها تعني: أنهم أنفسهم أنجاس تزعجهم الطهارة، وما أحلّ الله من الطيبات، وكان الله تعالى يجعل في كلامهم منافذ لإدانتهم، وليحكموا بها على أنفسهم»^(٢).

ثالثاً: ﴿وَقَرَنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

«وقوله تعالى: ﴿الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ فيه وجهان:

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥ / ١٦٧.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٣ / ٥٣٧.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤ / ٥٦٢.

(٢) تفسير الشعراوي ١٧ / ١٠٨٠٦.

من صور الجهالة

عرض القرآن الكريم صورًا للجهالة،
نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولاً: الوقوع في المعصية:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ
قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧].

والسوء: «هو العمل القبيح الذي يسوء
فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة»^(٢).

قال ابن رجب: «فإن كل من عصى الله
فهو جاهل، وكل من أطاعه فهو عالم، وبيانه
من وجهين:

أحدهما: أن من كان عالمًا بالله تعالى
وعظمته وكبريائه وجلاله، فإنه يهابه
ويخشاه، فلا يقع منه -مع استحضار ذلك-
عصيانه، كما قال بعضهم: لو تفكر الناس
في عظمة الله تعالى ما عصوه، وقال آخر:
كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله
جهلاً.

والثاني: أن من أثر المعصية على الطاعة
فإنما حمله على ذلك جهله، وظنّه أنها تنفعه
عاجلاً باستعجال لذتها، وإن كان عنده
إيمان فهو يرجو التخلص من سوء عاقبتها
بالتوبة في آخر عمره، وهذا جهل محض!

(٢) تفسير المراغي ٤ / ٢٠٧.

الاستعارة ما ينفر أولى الأبواب عما كرهه
الله لعباده ونهاهم عنه، ويرغبهم فيما رضىه
لهم وأمرهم به^(١).

(١) المصدر السابق.

وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ عَفُورٌ رَجِيمٌ ﴿٥٤﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ
عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَجِيمٌ ﴿٥٤﴾
[النحل: ١١٩].

ثانياً: عدم التثبت في الأخبار:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ جَاءَ كُرْفَاسِقٌ بِنِوَا فْتَسِينُوا
أَنْ تَصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَنَّمَ فَتَصِيحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ
نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

«والجهل: فوق الخطأ؛ لأن المجتهد إذا
أخطأ لا يسمى جاهلاً، والذي يبني الحكم
على قول الفاسق إن لم يصب جهل، فلا
يكون البناء على قوله جائزاً»^(٤).

قال ابن عاشور: «والجهالة: تطلق بمعنى
ضد العلم، وتطلق بمعنى ضد الحلم مثل
قولهم^(٥):

بجهل كجهل السيف

فإن كان الأول: فالبراء للملابسة، وهو
ظرف مستقر في موضع الحال، أي: متلبسين
أنتم بعدم العلم بالواقع لتصديقكم الكاذب،
ومتعلق ﴿تَصِيبُوا﴾ على هذا الوجه محذوف
دل عليه السياق سابقاً ولاحقاً، أي: أن
تصيبوهم بضر، وأكثر إطلاق الإصابة على

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨ / ٩٩.

(٥) الشاهد من بيت لابن الرومي، تمامه:

بجهل كجهل السيف والسيف منتضى

وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

انظر: الصناعتين. للعسكري ص ٤٢٤.

فإنه يتعجل الإثم والخزي، ويفوته عز
التقوى وثوابها ولذة الطاعة، وقد يتمكن من
التوبة بعد ذلك، وقد يعاجله الموت بغتة،
فهو كجائع أكل طعاماً مسموماً لدفع جوعه
الحاضر، ورجا أن يتخلص من ضرره بشرب
الدرياق بعده، وهذا لا يفعله إلا جاهل^(١).

ولهذا يوصف من لم يعمل بعلمه
بالجهل وعدم العلم، قال أبو العالية:
سألت أصحاب محمد عن هذه الآية:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ
بِجَهَنَّمَ...﴾ فقالوا لي: كل من عصى الله
فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد
تاب من قريب، ومنه قول ابن مسعود: كفى
بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله
جهلاً وقيل للشعبي: أيها العالم! فقال:
العالم من يخشى الله!

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ
عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ^(٢).

«وقيل: معنى الجهالة أن يأتي الإنسان
بالذنب مع العلم بأنه ذنب، لكنه يجهل
عقوبته»^(٣).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلِذَا جَاءَكَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا قُلْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ
كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَنْ
عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِ

(١) روائع التفسير. ابن رجب الحنبلي ١ / ٢٩٧.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧ / ٥٣٩.

(٣) لباب التأويل، الخازن ١ / ٣٥٥.

إيصال الضرر.

وعلى الإطلاق الثاني: الباء للتعدية، أي: أن تصيبوا قومًا بفعلٍ من أثر الجهالة، أي: بفعلٍ من الشدة والإضرار^(١).

علاج الجهالة

تحدث القرآن الكريم عن علاج الجهالة، وهذا ما سوف نبينه فيما يأتي:

أولاً: التوبة:

من رحمة الله تعالى أنه (ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً)^(٢)؛ لعلم الله سبحانه بضعف هذا الإنسان من كل جهة - كما سبق -، وداء الجهالة التي معناها: الوقوع في الذنب عن علم أو غير علم، جعل الله تعالى له علاجاً ناجعاً، وهذا العلاج مكوّن من أمرين اثنين، أولهما: التوبة الصادقة لله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمَلُوا الشُّرُوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

والجهالة هنا إما:

❖ عدم العلم بتحريم ذلك، وسبب عدم العلم «عدم أسبابه: من النظر التام، والاستماع التام لآيات الحق وأعلامه، وسبب عدم النظر والاستماع: إما عدم المقتضي فيكون عدماً محضاً، وإما وجود مانع من الكبر أو الحسد في

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً، رقم ٥٣٥٤.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦ / ٢٣٢.

النفس ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

[الحديد: ٢٣] (١).

❊ وإما «بجهالة بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمدا للذنب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مفارقة الذنب، فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب، وندم عليه، وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها» (٢).

«والتوبة: الرجوع، وصحتها مشروطة باستدامة الإصلاح بعدها في الشيء الذي تيب منه» (٣).

فتتح باب التوبة من أعظم نعم الله تعالى على عباده، فله الحمد سبحانه.

وعند قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَأَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ خَيْرٍ﴾

﴿آل عمران: ١٣٥﴾ الآية، يروى عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «هذه الآية خير لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها» (٤).

وقال ابن سيرين: «أعطانا الله عز وجل هذه الآية مكان ما جعل لبني إسرائيل في

كفارات ذنوبهم» (٥).

وعند هاتين الآيتين: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٦) لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿[الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

يلفت شيخ الإسلام رحمه الله الانتباه لنكتة قيمة فيقول: «وذكر التوبة لعلمه سبحانه وتعالى أنه لا بد لكل إنسان من أن يكون فيه جهل وظلم، ثم يتوب الله على من يشاء، فلا يزال العبد المؤمن دائما يتبين له من الحق ما كان جاهلا به، ويرجع عن عمل كان ظالما فيه، وأذناه ظلمه لنفسه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]» (٦).

ثانياً: الإصلاح:

عطف الله سبحانه وتعالى الإصلاح على التوبة في ثماني آيات من القرآن الكريم، منها الآية التي ذكرت في العلاج الأول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٢٣ / ١٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥١.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ٢٩٧.

(٤) انظر: الترغيب والترهيب، قوام السنة ١ / ١٧١، رقم ٢١٩.

(٥) تفسير ابن حنبل ١ / ٥٦٤.

(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣ / ٣٤٨.

الصالح في الكون، وهكذا نضمن ألا يجيء التائب إلى الشيء فيفسده؛ لأن من يريد أن يزيد الصالح صلاحًا، لن يفسد الشيء الصالح.

وربما كان هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم في لحظة من لحظات غفلة وغيهم الإيماني ساعة يذكرون الذنب أو الجريمة التي اقترفوها بالنسبة لدينهم، يحاولون أن يجدوا ويسارعوا في أمر صالح حتى يجبر الله كسر معصيتهم السابقة بطاعتهم اللاحقة^(٤).

ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [النور: ٥].
ومنها كذلك: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمَا﴾ [النساء: ١٦].

ولا شك أن هذا التكرار لهذا العطف يدعو المسلم للتدبر في سر ومعنى هذا العطف.

قال الألوسي: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾: أي: أصلحوا أعمالهم أو دخلوا في الصلاح، وفسر بعضهم الإصلاح بالاستقامة على التوبة^(١).

وقال ابن كثير: «أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات»^(٢).

وقال شيخ الإسلام عن آدم عليه السلام: «فإن قيل: وهو قد تاب فلماذا بعد التوبة أهبط إلى الأرض؟ قيل: التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعملها؛ فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩]»^(٣).

وهنا لطيفة يسعفنا بها الشعراوي رحمه الله فيقول: «ومعنى كلمة (أصلح) أنه زاد شيئًا صالحًا على صلاحه، والكون ليس فيه شيء فاسد - اللهم إلا ما ينشأ عن فعل اختياري من الإنسان - وعلى التائب أن يزيد

(١) روح المعاني، الألوسي ٧ / ٤٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٦١٠.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨ / ٣٢٢.

(٤) تفسير الشعراوي ٣ / ١٦٠٥.

الإتيان به، وأن وجوده خير من عدمه؛ وذلك لأن في هذا القسم لو اقتصر على الأخذ بالعمى ولم يأمر بالعرف ولم يكشف عن حقيقة الحال، لكان ذلك سعيًا في تغيير الدين وإبطال الحق وأنه لا يجوز، ثم إنه إذا أمر بالعرف ورغب فيه ونهى عن المنكر ونقّر عنه، فربما أقدم بعض الجاهلين على السفاهة والإيذاء! فلهذا السبب قال تعالى في آخر الآية: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال في آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَرَأُوا بِاللَّغْوِ مَرُوءًا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].
وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

وقال في صفة أهل الجنة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا﴾ [الواقعة: ٢٥] (١).
وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قولان:

أحدهما: أنهم المشركون، أمر بالإعراض عنهم، ثم نسخ ذلك بآية السيف. والثاني: أنه عام فيمن جهل، أمر بصيانة النفس عن مقابلتهم على سفههم، وإن وجب عليه الإنكار عليهم.

وهذه الآية عند الأكثرين كلها محكمة، وعند بعضهم أن وسطها محكم وطرفيها

التعامل مع الجاهلين

أرشد القرآن الكريم إلى وسائل التعامل مع الجاهلين؛ ليسلكها المؤمنون مع الجاهلين، وهذه الوسائل نذكرها فيما يأتي: أولاً: الإعراض:

قال الله تعالى لنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

اعلم أن «الحقوق التي تستوفى من الناس وتؤخذ منهم، إما أن يجوز إدخال المساهلة والمسامحة فيها، وإما أن لا يجوز.

أما القسم الأول: فهو المراد بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ ويدخل فيه ترك التشدد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية، ويدخل فيه أيضًا التخلق مع الناس بالخلق الطيب، وترك الغلظة والفظاظة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن هذا الباب أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بالرفق واللطف، كما قال تعالى: ﴿وَخَدِّ لَهُم بِآيَاتِي مِنْ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يجوز دخول المساهلة والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف، والعرف، والعارفة، والمعروف: هو كل أمر عرف أنه لا بد من

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥ / ٤٣٥.

منسوخان على ما بيننا»^(١).

قال ابن جرير: «وذلك وإن كان أمرًا من الله نبيه؛ فإنه تأديب منه عز ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن الجاهل الواجب عليه من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجاهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب»^(٢).

وقد ورد في البخاري مثال تطبيقي لهذه الآية مع الخليفة الثاني رضي الله عنه عمر بن الخطاب، يحكيه ابن عباس رضي الله عنهما، فيقول: (قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا أو شبانًا»، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: «فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر»، فلما دخل عليه، قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وإن هذا من الجاهلين،

«والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله»^(٣).

ثانيًا: الخطاب بالحسنى:

لم يكتب الحق سبحانه وتعالى في أمر عباده الأتقياء بالإعراض عن الجاهلين فحسب، بل وحثهم على أن يقولوا لهم قولًا حسنًا، ويردوا عليهم ردًا جميلًا، فقال تعالى حاكيا حال عباده مع أهل الجهالة: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

«أي: صوابًا من القول وسدادًا.

وقال الحسن البصري رحمه الله: هذا دأبهم في النهار، فإذا دخل الليل كانوا كما وصف الله في آخر الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾^(٤).

«وقال مجاهد: معنى ﴿سَلَامًا﴾ قولًا سديدًا، أي: يقول للجاهل كلامًا يدفعه به برفق ولين فقالوا على هذا التأويل عامل في قوله ﴿سَلَامًا﴾ على طريقة النحويين، وذلك أنه بمعنى قولًا، وهذه الآية كانت قبل آية السيف فنسخ منها ما يختص الكفرة، وبقي أدهبا في المسلمين إلى يوم

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، ٦/ ٦٠، رقم ٤٦٤٢.
(٤) انظر: لطائف الإشارات، التستري ١/ ١١٤.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٨١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٣٢.

القيامة»^(١).

قال الشعراوي: «الجاهل: هو السفیه الذي لا يزن الكلام، ولا يضع الكلمة في موضعها، ولا يدرك مقاييس الأمور، لا في الخلق ولا في الأدب.

وسبق أن فرقنا بين الجاهل والأمي:

الأمي خالي الذهن، ليس عنده معلومة يؤمن بها، وهذا من السهل إقناعه بالصواب. أما الجاهل فعنده معلومة مخالفة للواقع؛ لذلك يأخذ منك مجهودًا في إقناعه؛ لأنه يحتاج أولاً لأن تخرج من ذهنه الخطأ، ثم تدخل في قلبه الصواب.

والمعنى: إذا خاطبك الجاهل، فحذار أن تكون مثله في الرد عليه فتسفه عليه كما سفه عليك، بل قرعه بأدب وقل: ﴿سَلِّمًا﴾ لتشعره بالفرق بينكما»^(٢).

موضوعات ذات صلة:

الأمية، العلم، الفقه

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤ / ٢١٨.

(٢) تفسير الشعراوي ١٧ / ١٠٥٠٢.

